الطباعة بين النشأة والتطور ودور لبنان فيها

د. رياض غنام(*)

شكلت الطباعة منذ أن عرفها الإنسان نقلة نوعية في الثقافة الإنسانية، ومع تطورها ساهمت في نشر المعارف وتعميمها خصوصاً مع تفاعل الحضارات وازدهار علم الترجمة، الأمر الذي فتح الثقافة المجتمعية وتفاعلها على الشعوب كافة. وقد جاء اختراع الطباعة وترقّي الفن فيها، ليساهم في نشر الوعي الإنساني ويحرر النخبة من محيطها الضيق، ويوسع دائرة وعيها وإطلاقها إلى رحاب أوسع خصوصاً في ذروة عصر التنوير الذي شهده الغرب الأوروبي بدايةً، ثم عصر النهضة بمفهومها المشرقي لاحقًا، وصولاً إلى القرن العشرين. وكل هذا التطور الحضاري الإنساني لم يكن ليحصل لو لم تكن الطباعة أحد أركانه الأساسية في بناء ثقافة ما نحن عليه الآن، حتى أن المؤرخين اعتبروا أن تاريخ بدء انتشار الطباعة شكل حدًا فاصلاً لنهاية العصور الوسطى، وبداية العصر الحديث.

الطباعة في عهودها القديمة:

الطباعة بمفهومها العملي تجسّد الأحرف أو الكلمات أو الصور بنقلها عن صفائح رسمت عليها مقلوبة، ثم تؤخذ عنها بالضغط فتنتقل إما بالحبر أو الألوان كطباعة الكتب والأقمشة والرسوم والأوراق وغيرها، وقد تكون الطباعة على ألواح المعدن كطباعة كتب العميان وسائر المطبوعات البارزة التي تكون أحرفها على قطع من الخشب أو المعدن، أو أن ترسم بحبر زيتي أو قلم خاص على لوح من الحجر، ويرطّب الحجر بالماء، فإذا مدّ حبر الطباعة علق بما على الحجر من الحبر فقط، ونبذته باقي أجزاء الحجر الرطبة فينقل على الورق بالضغط. وهذا النوع من الطباعة معروف بالطباعة الحجرية،

(*) مدير عام الجلسات واللجان ـ مجلس النواب.

ولعل الكتب المطبوعة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أغلبها طُبع على تلك الطريقة الحجرية.

من خلال التنقيب عن جذور هذا الفن، يتبيّن أن أهل المشرق هم أول من عرف الطباعة. فيذكر الأب لويس شيخو في كتابه «تاريخ فن الطباعة في المشرق» أن ملوك الكلدان قد اتخذوا في مدينة بابل قوالب ناتئة الحروف طبعوا عليها أوامرهم الرسمية. وكان العمَلة يجعلون هذه القوالب على الآجُر قبل طبخه فتتمثّل الحروف محفورة، وقد تم اكتشافها من قبل علماء العاديات، وهي تعود لأكثر من ألف سنة قبل المسيح.

وإذا كان الكلدانيون قد عرفوا هذا الفن بتاريخ سابق، فإن الصينيين تعرّفوا إليه في القرن السادس الميلادي، لكن هذا النوع من الطباعة القديمة لم ينتشر قبل القرن العاشر، فكانت الطباعة لديهم عبارة عن نقل المطبوعات عن قوالب محفورة من الخشب، وقد ظلوا كذلك لمدة طويلة وهم يؤثرون طباعة القوالب على الأحرف المتفرقة نظرًا إلى ما في لغتهم من تعدّد الأحرف التي تعدّ بالمئات، وما في استخدامها من الصعوبة. وعن الصينيين أخذ اليابانيون الطباعة، ثم طوّروها من خلال استعمالهم للأحرف المتفرقة.

ويبدو أن فن الطباعة انتقل إلى أوروبا. ففي أواخر القرن الثاني عشر عمل النسّاجون في كل من إيطاليا وإسبانيا وصقلية على طريقة الصينيين في طباعة الرسوم والصور على منسوجاتهم الحريرية والقطنية بالحبر على ألواح من الخشب المحفور، وطبعوا بالطريقة عينها على ورق اللعب ثم الصور الدينية. كما طبعوا سنة ١٤٢٠ التوراة المعروفة باسم «توراة الفقراء»، وذلك قبيل اختراع الأحرف المتفرقة في أوروبا بوقت قصير.

ويبدو أيضاً أن عرب الأندلس لم يجهلوا فن الطباعة حسب ما توصل إليه المستشرق هامر برغشتال، بل اهتدوا إليه بعد فتوحهم لقسم من بلاد هندستان، ودخولهم إلى الصين، مستشهدًا بما ورد في كتاب «الإحاطة في تاريخ غرناطة» حيث ورد: «ورفع للوزير الحكيم كتابًا في الخواصّ (خواصّ) وصنعة الأمرّة وآلة طبع الكتاب غريب في معناه». وجاء أيضًا في كتاب «الحلّة السرية» لابن الأثير (طبعة دوزي) عن بدر مولى الأمير عبدالله أنه كان «يكتب السجلات في داره ثم يبعثها للمطبع فتُطبع وتخرج إليه فتُبعث في العمال». الأمر الذي يدلّ على أن عرب الأندلس كانوا يعلّمون فن الطباعة على الحجر، وكانوا يحفرون أيضًا الخشب للطبع.

سلك أكثر الرهبان في أديرتهم على مسلك نسخ الإنجيل والكتب الدينية، وكانت الحاجة إلى الطباعة تزداد بهدف نشر الدين، والرغبة في العلم وتشوّق الراغبين خصوصًا بعد أن قصرت أيدي النساخ عن تلبية حاجات المؤمنين، ثم أن صناعة الورق، وما كان لازدهارها من تأثير وحاجة لدفع الطباعة إلى الأمام، وقد ذهب بعضهم إلى الاتجار بتلك السلعة، مشكّلة عامل ضغط في وقت كانت الطباعة القديمة لم تزل على حالها، إلى أن توصل الألماني حنا غوتنبرغ إلى اختراع الأحرف المتفرقة والمطبعة الحديثة فكان «أن قلبت وجه الأرض وغيرت أحوال ما عليها».

غوتنبرغ يقلب عالم الطباعة:

اختلف المؤرخون في مخترع الأحرف المتفرقة التي هي في أساس المطبعة الحديثة، فادّعى الهولنديون أن المخترع هو لورنس كوستر، وأن غوتنبرغ كان أحد عمَلته، فسرق الاختراع وادّعاه لنفسه. في حين أن كوستر كان صاحب فندق، وكان يصنع الشمع من الشحم، كما ادّعى بعضهم أن مخترع الأحرف المتفرقة

إنما هو حنا فوست، وقال غيرهم، بل هو بطرس شوفر. أما العلماء الألمان كما غيرهم فقد نسبوا الاختراع إلى حنا غوتنبرغ المتوفى سنة ١٤٦٨. وكان قد تعاطى فن الطباعة في مدينة ستراسبورغ سنة ١٤٣٦، واستخدم الحروف في السنة عينها، واشترك مع فوست وهو من ذوي الثروة في امتلاك مطبعة مع سائر لوازمها، إلى أن انحلت الشراكة بينهما. ويبدو أن فن الطباعة مَدين لكل من غوتنبرغ وفوست، فالأول اخترع الطباعة بالحروف، وحسّنها فوست المتوفى سنة ١٤٦٦. وبعد انتشار الطاعون في أنحاء مختلفة من أوروبا سنة ١٤٦٢ انتقل العديد من العمال الذين كانوا يعملون في الطباعة فكان أن بدأ الإيطاليون باستخدام الطباعة عام ١٤٦٥، ثم انتقلت إلى روما. وفي سنة ١٤٦٩ أنشئت المطابع في باريس وميلان والبندقية. ثم انتقل هذا الفن إلى إنكلترا عام ١٤٧٤ وبرشلونة عام ١٤٧٥، إلى أن عمت أوروبا سنة ١٥٠٠ فبلغ عددها نحو ٢٠٠ مطبعة. أما القارة الأميركية فقد أسست أول مطبعة فيها في المكسيك سنة ١٥٣٦.

طباعة بعض الكتب العربية في أوروبا:

اتخذت السلطات العثمانية بتشجيع من المراجع الدينية الإسلامية موقفًا معارضًا للمد الطباعي الذي بدأ يغزو العالم. فعام ١٤٨٥ أمَر السلطان العثماني بايزيد الثاني بعدم التعاطي مع هذا الاختراع الجديد خوفًا من انتشار الكتب والأفكار على نحو يهدّد المجتمع الإسلامي، فرفض رجال الدين التعامل بالطباعة مع القرآن الكريم كما سائر المؤلفات الدينية الإسلامية.

وقد ساهم نسّاخ القرآن بالترويج لهذا الموقف خوفًا منهم على مهنتهم ومعيشتهم. وبعد بايزيد جدّد ابنه وخليفته السلطان سليم الأول هذا الأمر عام ١٥١٥. وقد استمر هذا الموقف الرافض أكثر من قرنين من الزمن إلى أن أفتى شيخ الإسلام عبدالله أفندي سنة ١٧١٦ بجواز طبع كتب اللغة والتاريخ والطب وسائر المعارف والفنون، ما عدا الكتب الدينية الإسلامية إضافة إلى تحريم طبع القرآن الكريم.

اقتصرت المطبوعات العربية على إصدارها في البلدان الأوروبية. فذكرت مجلة «الهلال» المصرية أن كتاب مزامير داوود تمّ طبعه في جنوا سنة ١٥١٦. ثم التوراة العربية ترجمة سعيد الفيومي، طبعها اليهود في الآستانة سنة ١٥٥١. وطبع كتاب مزامير داوود بالعربية بالحروف السريانية مع ترجمته إلى السريانية سنة ١٥٨٥ في مطبعة مار قزحيا التي أنشأها الرهبان. ثم عمّت الطباعة العربية مختلف أنحاء أوروبا، فطبع الإنجيل في روما سنة ١٥٩١، وقانون ابن سينا سنة ١٥٩٣، والتوراة سنة ١٦٧١، كما طبع القرآن الكريم في همبورغ سنة ١٦٩٤، وكتاب ترجمة صحاح الجوهري بالتركية سنة ١٧٣٠ في الآستانة، وكتاب نجوم الفرقان سنة ١٨١١ في كلكتا في الهند.

الطباعة في جبل لبنان (مطبعة دير قزحيا):

كان للمدرسة المارونية التي أنشأها بابا روما سنة ١٥٨٥، الأثر الكبير في نشر الثقافة والتعليم بين رجال الدين الموارنة. وقد قيّض للذين تخرّجوا منها في مختلف الآداب والعلوم الدينية والمدنية أن يعودوا إلى وطنهم، وينشروا في طائفتهم ما أحرزوه من علوم ومعارف. وكان عدد خريجي هذه المدرسة يتعدى ٤٠٠ على مدى ١٩٣ سنة. وقد تولّى أغلبهم مهام تعليمية وثقافية، وبعضهم ارتقى إلى رتبة مطران وبطريرك، في حين بقي بعضهم في أوروبا فخدموا الكرسي الرسولي، أو بعض أمراء فلورنسا، واشتهر بعضهم في روما ومدريد وفيينا، وكان للعديد منهم تآليف مختلفة في شتى المواضيع الثقافية.

وإلى تلك الفترة يعود إنشاء أول مطبعة في جبل لبنان وهي مطبعة دير قزحيا التي أنشأها الرهبان الموارنة سنة ١٦١٠، وتمت فيها «طباعة كتاب مزامير داوود على قطع الخشب بحرفين سريانيين على حقلين سرياني وكرشوني. وكلا الحرفين نضر مشرق في صدر صفحته الأولى نقوش، وعناوين في أسفلها». وذُكر أيضًا: «إن الكتاب تمَّ بالحبس المكرم في وادي قوزحيا في جبل لبنان المبارك على يد المعلم بسكالي إلي، وعلى يد الحقير يوسف ابن عميمة الكرمسداني باسم شماس سنة أ س ي ر بًّا (أي ١٦١٠ ربّانية). ويرجح أن المطران جرجس عميرة الإهدني تلميذ مدرسة رومية، هو من استجلب تلك المطبعة من رومية قبل تنصيبه بطريركًا على الطائفة المارونية. إلا أن رأيًا مخالفًا لذلك يظهر أن المعلومات المتوافرة حول ظروف إنتاج أول كتاب لمطبعة دير قزحيا سنة ١٦١٠ يثبت أن المطران سركيس الرزي أحد أول خريجي المدرسة المارونية في روما هو الذي جلب المطبعة سنة ١٦١٠ من روما، وأحضر معها المعلم الطباعي بسكالي إلي، وكانت حروف هذه المطبعة سريانية وطبعت بها اللغة العربية بالكرشوني- أي المعنى باللغة العربية، والحرف باللغة السريانية- وكان الكتاب هو كتاب المزامير، وعدد صفحاته ٢٦٠ صفحة. ولم تُصدر هذه المطبعة إلا كتابًا واحدًا لا غير. والمؤسف أن هذه المطبعة القديمة، لا أحد يعرف مصيرها، وكيف تضعضعت حروفها بعد أن طبع بها هذا الكتاب الوحيد. ويستغرب الأب لويس شيخو مؤلف كتاب «تاريخ فن الطباعة» ما جرى لهذه المطبعة «فذلك أمر غريب لم يفدنا عنه أحد شيئًا» مؤكدًا «أن لا مرية في أن المطبعة (الحالية) هي غير المطبعة القديمة، وحروف هذه غير حروف تلك».

والذي يبدو أن مطبعة دير قزحيا الجديدة حلت محل تلك القديمة المندثرة. وقد أخذت تنشر الكتب ابتداء من أوائل القرن التاسع عشر، وقد اهتم بها سيرافيم حوقا (والفرنج يسمونه سوسن) البيروتي، فوضعها أولًا في دير مار موسى الدوّار ريثما يعمّر لها محل، وهناك طبع كتاب الشحيم الكامل كله بالحرف الأسود، ثم نقلها إلى دير قزحيا، وكانت حروفها بالسريانية. وقد طبعت العديد من الكتب منها القداس الإلهي بالسرياني والكرشوني، وخدمة القداس أيضًا بالسرياني والكرشوني، وكتاب الشحيم، وكتاب صلوات نهارية وليلية، وكتاب الرسائل تعريب المطران جرمانوس فرحات، وغير ذلك من الكتب الدينية.

لقد ظلت الطباعة في بلاد المشرق ولمدّة طويلة من الزمن شأنًا مسيحيًا. إذ منذ ظهورها في الشرق ظلّت محصورة في المجتمعات المسيحية سواء أكانت شرقية أم إرساليات أجنبية، لذلك اقتصرت الإصدارات على المؤلفات الدينية المسيحية والكتب اللغوية والأدبية، دون تعدي انتشارها خارج محيطها الثقافي المباشر، وهو انتشار كان محكومًا بمعوقات موضوعية لا يمكن تخطيها لضآلة التعليم في المجتمعات المشرقية وجمودها الثقافي، فكان لا بد من انتظار حقبة النهضة المشرقية الفكرية والأدبية واللغوية والصحافية والعلمية، وهي الحقبة التي جاءت بعد النهضة التي عرفتها أوروبا في القرن السادس عشر، والمعروفة بعصر الأنوار، وهي نتيجة طبيعية لتفاعل النهضتين الغربية والمشرقية، والتي كانت الطباعة أحد مداميكها الأساسية بعد انتشارها الواسع في مختلف الأقطار العربية، وخصوصًا في مصر سوريا ولبنان.

الطباعة في العاصمة إسلامبول (الآستانة):

ظلّ سلاطين آل عثمان ينظرون إلى الطباعة في أول الأمر نظرة الخوف والحذر خشية أن

يعمد أصحاب الغابات إلى الكتب الدينية فيحرفونها ويشوهونها بالتزوير وهذا ما سار عليه بايزيد وابنه سليم الأول، ولكن سرعان ما تبدل الوضع وكان أول من سعى إلى إنشاء مطبعة في الآستانة اليهودي الرّبي اسحق جرسون فأسس أول مطبعة في العاصمة في أواخر القرن الخامس عشر وكانت حروفها عبرانية، وقد طبعت بعض الكتب العربية بالحرف العبراني. وما ساعد في تطوير هذه المطبعة نفوذ بعض اليهود عند ذوي رجال الدولة، وكان بينهم نطس الأطباء وعظام التجار، وقد غلب على مطبوعاتها السمة الدينية مع عناوين قليلة في الطب والتاريخ، ثم عمد اليهود إلى إنشاء مطابع أخرى في أكثر من مدينة عثمانية لا سيما مدينة سالونيك وأكثر ما طبعته الكتب الدينية والعلمية.

أما الطباعة بالحروف العربية فقد ظهرت في العاصمة الآستانة في فترة الربع الأول من القرن الثامن عشر في عهد السلطان أحمد الثالث بجهد محمد أفندي جلبي وابنه سعيد، وقد صدّر الفرمان القاضي بالترخيص لهما بطبع كل الكتب إلا كتب التفسير والحديث والفقه والكلام. وأول كتاب طبع في المطبعة الخاصة بهما هو صحاح الجوهري، ثم كتاب تاريخ الحاج خليفة «تحفة الكبار في أسفار الإبحار» (١٧٣٠) وغير ذلك من الكتب التركية والعربية.

إن أكثر التآليف التي نشرت في القرن الثامن عشر في الآستانة كانت باللغة التركية، وقليل منها بالعربية والفارسية، وعندما سُمح بنشر الكتب الدينية تعددت المطبوعات، ونشر الكثير منها. فيذكر المؤرخ جودت باشا في كتابه تاريخ جودت باشا الصادر سنة ١٣٠٨ هـ/ ١٨٩٠م (ص٨٤) ما نصه: «إنه بمقتضى الفتوى الشريفة التي صدرت على حسب ما ذكرناه وذلك حذرًا من اعتراض أصحاب التعصب، فمضت مدة طويلة لم تطبع بها كتب شرعية، ولم يرَ علماء أصول الفقه من بأس بطبع الكتب الشرعية وإن كان فيه أعمال تخلّ بتعظيمها وذلك استنادًا إلى القضية المسلمة عندهم وهي (الأمور بمقاصدها) فإنهم بناء على هذه القضية أجازوا تجليد القرآن الكريم خوفًا من شتات أوراقه وضياعها، مع أن في التجليد أمورًا تخلّ بالتعظيم أكثر من الطبع مثل الرضّ بالمطارق والتضييق بالملازم. وللمقاصد الخيرية في تكثير الكتب نوّعوا طبعها تعميمًا لمنافع الطلبة فاستفاد من ذلك جميع أصحاب الفنون».

أما لجهة طباعة القرآن الكريم، فإن أول طبعة له كانت في مدينة البندقية في إيطاليا، وقد ذكر ذلك الدكتور يحيى الجبوري في كتابه «منهج البحث». لكن السلطات الكنسية أمرت بإتلاف هذه الطبعة فور ظهورها حتى لا تتأثر به الطوائف المسيحية أو ربما هناك أسباب أخرى منها رداءة الطباعة، وكما اختلف المؤرخون في ذلك، كذلك اختلفوا في تاريخ ظهور هذه الطبعة، فمنهم من أرّخها سنة ١٤٩٩ ومنهم من أرّخها سنة ١٥٠٨ أو ١٥١٩ أو ١٥٣٠ أو ١٥٣٨. وليس هناك من تاريخ محدّد سوى أن هذه الطبعة ظهرت بين ١٤٩٩ و١٥٣٨.

كذلك هناك طبعة ظهرت سنة ١٧٨٧ في مدينة سانت بتروسبيرغ في روسيا القيصرية، أما في العالم الإسلامي فقد طبع القرآن في طهران سنة ١٨٢٨، وكذلك في تبريز من العام نفسه، وفي تركيا سنة ١٨٧٧، وفي مصر سنة ١٩٢٣.

حلب رائدة طباعة الحرف العربي:

بعد مضي أكثر من قرن على ظهور مطبعة دير قزحيا في جبل لبنان، عرفت حلب ظهور أول كتاب مطبوع باللغة والحرف العربيين عام

١٧٠٦ على يد بطريرك الروم اثناسيوس الثالث دبّاس وهو كتاب «المزامير». وقد طبعت مطبعة حلب سبعة كتب قبل أن تتوقف سنة ١٧١١، وإذا كانت مطبعة دير قزحيا قد ظهرت نتيجة العلاقة الوثيقة بين الكنيسة المارونية، وروما البابوية، فإن مطبعة حلب قد ظهرت نتيجة العلاقة الوطيدة للروم الحلبيين بولاية فاليشا في رومانيا والحركة الطباعية في سيناجوفو وبوخارست التي زودت الروم المشرقيين بكتب مطبوعة بالعربية واليونانية، ويرجح أن تكون مطبعة حلب هذه هي مطبعة بوخارست العربية نفسها التي نقلها إليها البطريرك إثناسيوس عام ١٧٠٤.

إن ظهور الكتاب الأول المطبوع في حلب بالحرف العربي، جاء نتيجة تألّق هذه المدينة ثقافيًا واقتصاديًا لافتًا، إذ التقت فيها عدة عوامل ساهمت في نهضتها منها: موقعها المميز كنقطة التقاء للمواصلات والطرق التجارية، وتواجد القنصليات والإرساليات والجاليات التجارية الأوروبية، واستمرار المجتمع الإسلامي في المدينة على طريقته التقليدية لجهة العلوم الدينية وخصوصًا لجهة ازدهار حركة النسخ واتسام حلب في تلك الفترة بتعددية المذاهب المسيحية من روم وموارنة وسريان وأرمن، حيث شكلوا ربع سكان المدينة، الأمر الذي سهّل للجماعات المسيحية بناء علاقات تجارية وثقافية مع أوروبا. وهذا ما أتاح نشوء طبقة بورجوازية ثرية، وازدهار اقتصادي مع اتساع في التعليم والثقافة في المجتمع الحلبي. كما كان للمدرسة المارونية في حلب أهميتها بعد أن طوّرها الأب بطرس التولاوي بعد تخرّجه من روما، فتحولت بإدارته إلى مركز تعليمي وثقافي مهم، فتخرّج منها المطران جرمانوس فرحات وعبدالله الزاخر صاحب الدور الرائد في الطباعة العربية.

ومما لاشك فيه أن النهضة الأدبية التي عمّت بلاد الشام لاحقًا، كان بدؤها في مدينة حلب منذ أوائل القرن الثامن عشر، وبذلك أحرزت الشهباء منذ ذلك العصر مجدًا سبق كل البلاد الشرقية بفن الطباعة العربية، إذ إن الحروف العربية كان ظهورها لأول مرة في حلب في بدايات القرن الثامن عشر. وأصل هذه المطبعة مجهول ولا يُعلم من أمرها شيء، ولعل حروفها حُفرت وسُبكت في مدينة حلب، وهي حروف خشنة والطبع عليها غير متقن. ويؤكد الأب لويس شيخو بخصوص مطبعة حلب أنه لا أحد يعرف كيف انتهت هذه المطبعة، وكيف بطُلت آلاتها وتضعضعت حروفها، مظهرًا الاختلاف بين ما قاله العلامة شنورر Schnurrer، بأن حروف مطبعة حلب هي حروف مدينة بكرش Bucharest عاصمة الفلاخ وهي التي استقدمها إلى حلب إثناسيوس الرابع البطريرك الإنطاكي، وما ذكره المستشرق دي ساسي لجهة الاختلاف بين حروف بكرش وحلب.

مطبعة الشوير:

الشوير بلدة لبنانية في قضاء المتن، وإليها تنسب مطبعة مار يوحنا الشوير، وكان الشماس عبدالله الزاخر أحد أركان مطبعة حلب حيث اكتسب خبرة الطباعة. وكان من أشد مؤيدي الاتجاه الكاثوليكي. وبسبب الاختلاف مع البطريرك أثناسيوس دباس لجأ الشماس إلى بلدة زوق مكايل، وهناك أخذ في إنشاء المطبوعة المنسوبة إليه يؤازره في ذلك الأب بطرس فروماج اليسوعي. وحيث إن الزاخر في حداثته كان يتعاطى فن الصياغة، فساعده ذلك على رسم حروف الطباعة وحفرها ثم سبكها سبكًا حسنًا وفي غاية الحسن والنضارة. وعلى الرغم من الخلاف حول هذه المطبعة بين رأي الرهبنة الشويرية الذي يولّى الزاخر الفضل في تأسيسها، ورأي اليسوعيين الذي يعيد الفضل

إلى الأب فروماج واعتباره رائد هذه المطبعة ومنشئها، فإن هذه المطبعة استمرت في عملها مدة طويلة من العام ١٧٣٤ إلى العام ١٨٩٩، تخللتها فترات من التوقف والانطلاق، ومن النشاط والركود، وأصدرت أكثر من سبعين كتابًا بعضها معاد، وأغلبها يغلب عليه الطابع الديني ومخصوص بالفرائض الكنسية متقنة الطبع، ساعدت على إعلاء منارة الكنيسة الكاثوليكية في بلاد الشام.

مطبعة نابوليون في مصر (١٧٩٨):

لم تكن حملة نابوليون بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨ حملة استعمارية فحسب، وإنما كانت «حضارية علمية» نظرًا إلى ما رافقها من بعثات استكشافية، ولما نتج عنها من متغيرات طاولت بنى المجتمع المصري السياسي والاقتصادي على حد سواء، وهذا ما ظهر لاحقًا بعد هزيمة بونابرت العسكرية ورجوعه إلى فرنسا، وصيرورة الحكم إلى محمد علي باشا باني مصر الحديثة وما أحدثه من تغييرات جذرية في المجتمع المصري سياسيًا واجتماعيًا وعمرانيًا وحتى ثقافيًا.

وعلى الرغم من تركيز بونابرت على الجهود العسكرية في مواجهة بريطانيا والسلطنة العثمانية، إلا أنه ضمّن حملته نخبة من «العلماء والمستشرقين والمهندسين والأطباء والجغرافيين والمؤرخين واللغويين والأدباء والفنانين واختصاصيي الطباعة تمثلت فيهم الحداثة الأوروبية بمجمل مجالاتها».

أحضر بونابرت معه من فرنسا إلى مصر مطبعة، فكانت الأولى التي عرفتها مصر سنة ١٧٩٨، في الإسكندرية أولًا، ثم في القاهرة، وكانت بإدارة المستشرق جان جوزيف مارسيل، وعرفت أولًا بالمطبعة الأهلية الرسمية، ثم عرفت باسم مطبعة الجيش البحرية، والمطبعة الشرقية الفرنسية. وقد جهز بونابرت هذه المطبعة بحروف عربية وفرنسية ويونانية، ثم بحروف سريانية وقبطية وعبرية. وبدأ عملها على متن السفن قبل النزول إلى البر المصري، واحتلال الإسكندرية حيث صدر فيها في تموز سنة ١٧٩٨ أول مطبوع عرفته مصر، وهو البيان الشهير الذي وجهه بونابرت باللغة العربية إلى المصريين. كما أصدر الفرنسيون من خلال مطابعهم عدة مطبوعات منها صحيفة «Le courrier de l'Egypte» (بريد مصر، وهي جريدة إخبارية موجهة إلى الجيش، وصحيفة «La decade Egyptienne» (العشرية المصرية) المحتوية أبحاث علماء الحملة، وهما تصدران باللسان الفرنسي.

بعد انسحاب الفرنسيين من مصر عام ١٨٠١ سحبوا معهم تلك المطابع ولم يبقَ منها أي شيء. وهناك رأي آخر مخالف أورده الكونت فيليب دي طرازي يقول إن الفرنسيين تركوا مطبعتهم في مصر فكانت العامل المساعد لإنشاء مطبعة بولاق سنة ١٨٢٢ على يد محمد علي باشا.

مطبعة بولاق:

يعتبر محمد علي باشا، الألباني الأصل الذي قدم على رأس مجموعة من المقاتلين لمحاربة بونابرت سنة ١٨٩٨، والذي استقر في مصر بعد انسحاب الفرنسيين منها، باني مصر الحديثة هو وأعقابه الذين حكموا بلاد النيل حتى قيام الثورة الناصرية سنة ١٩٥٢. وطّد محمد علي حكمه في مصر بعد تسلّمه زمامها سنة ١٨٠٥، وخصوصًا بعد قضائه على المماليك سنة ١٨١١ فيما عُرف بمذبحة القلعة. أولى محمد علي اهتمامه بتطوير مصر على النمط الغربي، وخصوصًا الفرنسي، فأرسل البعثات العلمية إلى فرنسا، وأطلّق حركة التعليم والتنمية والطب والجيش، فضلًا عن اهتمامه بالصناعة والزراعة والتجارة أيضًا، حتى قيل

فيه إنه الصناعي الأول والمزارع الأول والتاجر الأول.

أدرك محمد علي أهمية الطباعة لتحقيق مشاريعه التعليمية والتنموية، فأنشأ سنة ١٨٢٢ مطبقة بولاق، وأولى إدارتها إلى نقولا مسابكي الذي سبق وأرسله إلى مدينة ميلانو لإتقان فن الطباعة – فكان أن أصدرت هذه المطبعة بعد عشرين سنة من إطلاقها أكثر من ٢٤٣ كتابًا باللغات العربية والتركية والفارسية، وتناولت الشؤون العسكرية والإنسانيات ومختلف العلوم الأدبية والدينية والمعاجم. كما طبعت المنشورات الحكومية، وطبعت صحيفة الوقائع عام ١٨٢٨ وهي أول جريدة رسمية في المشرق.

لم تكن مطبعة بولاق الوحيدة في مصر، بل ظهرت إلى جانبها مطبعة مدرسة الطب في أبي زعبل، ومطبعة طرّه، ومطبعة الجهادية، ومطبعة الديوان الخديوي.

شهدت الطباعة في مصر تراجعًا بين سنتي ١٨٤٠ و١٨٦٥، بعدها استعاد الخديوي إسماعيل ملكية مطبعة بولاق، فأعاد إليها النشاط الطباعي، وقد تحقق ذلك بهمّة ناظر المطبعة حسين حسني، فزوّدها بمحرك بخاري هو الأول من نوعه في مصر، وبآلات طابعة جديدة من أوروبا، وقد استمرت في أدائها المتطور في ظل الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢. كما شهدت مصر، خصوصًا الإسكندرية والقاهرة، قيام عشرات المطابع الأخرى الرسمية والخاصة بما فيها المطابع الأجنبية. وقد قدّر عدد الكتب التي صدرت في مصر حتى آخر القرن التاسع عشر بنحو عشرة آلاف كتاب تناولت مختلف الموضوعات. وهي لا تزال ناشطة حتى اليوم إلى جانب مراكز الطباعة الأساسية سواء في بيروت أم دمشق أم غيرهما.

الطباعة في لبنان في العصر الحديث:

- الطباعة في بيروت:

شهد لبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حدثين بارزين تجسّدا بانتقال الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية) من عبيه إلى بيروت، وانتقال اليسوعيين (الجامعة اليسوعية) من غزير إلى بيروت أيضًا. وما يستتبع ذلك من أنشطة عكست نتائجها على الوضع الثقافي بشكل عام.

في عام ١٨٣٤ نقل المرسل الأميركي آلي سميث Eli Smith مطبعة الأميركان من مالطة إلى بيروت، لما وجد في هذه المدينة من المثقفين المتضلّعين بالعربية القادرين على مساعدته لنشر الكتب باللغة العربية. لكن هذه المطبعة توقفت بعد أربع سنوات لأن أحرفها لم تكن تفي بالغرض، لذا رحل سميث إلى ليبزك سنة ١٨٣٩ وفيها سبَك حروفًا عربية جديدة نقلًا عن «أحسن خطوط زمانه في الآستانة فصنع لأجسامها المختلفة نحو ١٥٠٠ قالب غاية في الإتقان وساعده على ذلك رجل أميركي يدعى هالك. ومنذ ذلك الوقت دخلت المطبعة الأميركية في طور جديد، وصار لحروفها صيت طيب لنضارتها وحسن صورتها – فعُرفت في بلادنا بالحروف الأميركية».

إلى جانب المطبعة الأميركية، قامت مطبعة الآباء اليسوعيين عام ١٨٤٨ فشكلت هاتان المطبعتان النموذج المحتذى للطباعة في بيروت وجوارها من العواصم العربية وحاضراتها، لما كان لهما من أعمق الأثر في إنتاج الكتاب العربي ونشره على مساحة العالم العربي والعالمي.

ولا يخفى أن بيروت كانت قد عرفت مطبعتها الأولى سنة ١٧٥١ على يد نقولا الجبيلي المشهور بأبي عسكر، وقد أسس فيها

مطبعة القديس جوارجيوس الأرثوذكسية وأصدر فيها كتابه الأول، وهو كتاب المزامير وعدد صفحاته ٣٦٧ بقطع صغير، وله مقدمة في ٣٠ صفحة. ويذكر الأب لويس شيخو أن نقولا «أخذ يجد ويسعى في إنشاء مطبعة تضاهي مطبعة الروم الكاثوليك فرسم حروفًا تشبه حروف مطبعة الشوير بنضارتها وإتقانها، واتخذ لها قوالب أو أمهات فسبك حروفًا جديدة جعل الروم يطبعون عليها كتبهم الطقسية». لكن هذه المطبعة ظلّت ضعيفة الإنتاج إذ لم يُطبع فيها كتب تُذكر، فتوقفت بعد فترة وجيزة من إنشائها، غير أنها استعادت نشاطها بعد مضي أكثر من قرن، وخصوصًا بعد النهوض الطباعي الذي شهدته بيروت في منتصف القرن التاسع عشر.

بعد التطور الذي شهدته مطابع الأميركان والكاثوليك والروم الأرثوذكس، على خلفية الصراع العقائدي التبشيري بين الطوائف المسيحية الثلاث، توالى إنشاء المطابع في بيروت، فكان أهمها مطبعة خليل الخوري سنة ١٨٥٨ وهي المعروفة بالمطبعة السورية، وقد استقدمت آلاتها من فرنسا وإنكلترا، وطبعت عليها العديد من الكتب القانونية والأدبية والتاريخية، فضلًا عن الدوريات الصحفية وأبرزها حديقة الأخبار التي صدرت سنة ١٨٥٨، وهي أول جريدة عربية أنشئت في البلاد العثمانية خارج عاصمة السلطنة الآستانة. فكانت طليعة الصحافة العربية في بلاد الشام.

ثم أنشئت المطبعة العمومية على يد يوسف بن فارس بن يوسف الشلفون سنة ١٨٦١، وقد اعتمد فؤاد باشا على أثر حوادث ١٨٦٠، لترتيب ونظارة المحررات الرسمية التي كانت تطبع باللغتين التركية والفرنسية، ثم انفرد الشلفون بمطبعته الخاصة ودعاها بالاسم نفسه، وراح ينشر المطبوعات المفيدة والكتب الأدبية والروايات والمنشورات التجارية وأوراق الحكومة الرسمية، ثم عمل لدى أول متصرف في جبل لبنان داوود باشا فساعده في إنشاء مطبعة في مركز المتصرفية.

وإلى جانب الكتب الثقافية أصدرت مطبعة الشلفون عدة دوريات منها الزهرة والنحلة والنجاح والتقدم. وبعد مشاركة المطران يوسف الدبس لتلك المطبعة، أصبح اسمها «المطبعة العمومية الكاثولوكية».

وتلا ذلك نشوء المطبعة الشرقية، ورغم أن تاريخ إنشائها يعود إلى سنة ١٨٥٨ إلا أنها لم تعرف بالمطبعة الشرقية إلا بعد هذا التاريخ. أنشأها إبراهيم النجار الذي درس الطب في مصر، ثم في الآستانة. سافر إلى أوروبا، وعند عودته استقدم معه مطبعة اشتراها من فرنسا مع أدواتها وأمهاتها واشتغل فيها في بيروت. وبعد وفاته سنة ١٨٦٣ أوصى بالمطبعة إلى مطران بيروت طوبيا عون، في حين أخذ شقيق إبراهيم حنا النجار قسمًا من الحروف، ثم اشترى مطبعة وجعلها عند ساحة البرج ودعاها أيضًا المطبعة الشرقية.

وفي سنة ١٨٦٥ أنشأت الرهبانية المخلصية مطبعتها، وكان موقعها في المقام (الأنطوش) الذي يسكنه آباء هذه الرهبانية. ولا يزال قسم من أدواتها محفوظًا إلى اليوم. وقد طبعت الكثير من الكتب العلمية والدينية.

ثم ظهرت المطبعة الوطنية على يد جرجس شاهين بشراكة حنا جرجس الغرزوزي، وبعد انفصالهما أنشأ الغرزوزي المطبعة اللبنانية. وسنة ١٨٧٢ تولّى أمر هذه المطبعة سليم نقولا مدوّر فسمّاها باسمه السليميّة. وسنة ١٨٧٤ نقل قسمًا من هذه المطبعة إلى دمشق فصارت بعدها بيد محمد الحنفي.

كما ظهرت مطبعة المعارف سنة ١٨٦٧ على يد خليل سركيس، واتخذ لها الحروف الأميركية والإنكليزية، ولما أكمل معداتها تشارك معه في استثمارها المعلم بطرس البستاني،

فعملت مدة ثماني سنوات. بعدها أنشأ خليل سركيس المطبعة الأدبية في حين بقيت مطبعة المعارف بيد بطرس البستاني إلى أن توقفت عام ١٨٨٨. أما مطبعة جمعية الفنون، فهي أول مطبعة إسلامية تظهر في مدينة بيروت وقد أنشأها عبد القادر قباني سنة ١٨٧٤، واستحضر أدواتها من لندن، وطبع عليها جريدته ثمرات الفنون وبعض المؤلفات، ثم صارت إلى يد يوسف صادر ودخلت في جملة أدوات مطبعته المعروفة آنذاك بالعلمية.

وتابعت بيروت مسيرتها الطباعية فأنشأ محمد رشيد الدنا مطبعة بيروت سنة ١٨٨٥ بعد أن ابتاع أدواتها من المطبعة الكاثوليكية، ثم أصدر في السنة التالية جريدة بيروت، التي كانت تصدر مرتين في الأسبوع. ثم اقتنى صاحب هذه المطبعة مسبكًا للحروف الإسلامبولية. وفي أواخر سنة ١٨٨٥ تم إنشاء مطبعة الولاية الرسمية بعد أن استُقدمت أدواتها من باريس. وفي هذه المطبعة كانت تنشر جريدة بيروت الرسمية، وهي قسمان: قسم تركي وقسم عربي. كما طُبعت فيها أوراق النظامات والشروط والامتيازات والأوراق الرسمية، إلى غير ذلك من أوراق التجارة.

أما مطبعة الآداب فقد أنشأها الأخوان أمين وخليل الخوري سنة ١٨٩٠، وقد بلغ عدد عمالها ٢٧ عاملاً، وطبعت فيها جريدة الأحوال، وسنة ١٨٩٨ نُقل قسم منها إلى الإسكندرية في مصر، وبقي القسم الثاني في بيروت وكلاهما يُعرف باسم مطبعة الآداب.

وفي العام ١٨٩١ أسس خليل البدوي مطبعة الفوائد وفيها طبع جريدة الفوائد، وهي أول جريدة يومية في سورية تصدر– بإرادة سنية، كما كان يصدر منها أيضًا عدد أسبوعي كبير يوم الأحد، لخلاصة أخبار الأحوال اليومية. وطُبعت فيها أيضًا مجلة شهرية اسمها «الرئيس» لصاحبها الدكتور لويس الخازن، وصدرت منها أيضًا نشرة سنوية باسم «الأحوال» توزع هدية في رأس السنة لجميع المشتركين. وقد زوّدت هذه المطبعة بمحرك على الغاز لتحريك آلاتها، وهي أول مطبعة في سوريا (قبل قيام دولة لبنان) اقتنت محركًا بالغاز، وتطبع جميع الأوراق باللغات العربية والتركية والفارسية واليونانية والفرنسية وسائر اللغات الأجنبية، وكانت تسكب الحروف في مصبّها الخاص بها.

- الطباعة في جبل لبنان:

بعد ظهور مطبعة دير قزحيا في وادي قاديشا سنة ١٦١٠، ومطبعة دير مار يوحنا في الشوير سنة ١٧٣٤، عرف لبنان ابتداءً من أواسط القرن التاسع عشر عددًا من المطابع، فظهرت مطبعة بيت الدين التي تولّى إدارتها حنا الأسعد من مزرعة بيت أبي صعب في بلاد البترون، فنشر سنة ١٨٥٣ على الحجر بعض المطبوعات، ثم طبع غيرها على الحروف.

وبعد إنشاء متصرفية جبل لبنان سنة ١٨٦١، تعاون كل من يوسف الشلفون وحنا الأسعد بناء لطلب المتصرف داوود باشا على استقدام مطبعة من فرنسا إلى بيت الدين، وهي المعروفة باللبنانية. ثم جرى تطوير حروفها على يد ملحم النجار فبدّل بحروفها الحروف الأميركية، وقام حنا الأسعد برسم حروف أرسلت إلى النمسا لتُصنع لها قوالب. وكان أول كتاب طُبع فيها كتاب كليلة ودمنة. كما طبعت فيها جريدة لبنان الرسمية، وتولّى تحريرها حبيب خالد من بعبدا، مركز المتصرفية الشتوي.

وفي سنة ١٨٥٥ استحضر رهبان دير سيدة طاميش، آلة للطباعة مع أدوات أخرى للتجليد والنجارة، ولم يكن للمطبعة مسبك، لكن عملت لها حروف عربية. وظلّت تعمل إلى ما يقارب سنة ١٨٨٢، ثم بيعت أدواتها لقلة نفعها، وكثرة المطابع في بيروت.

أما مطبعة إهدن فيعود تأسيسها إلى سنة ١٨٥٩، أسسها رومانوس يمين، وشاركه في العمل الخوري يوسف الياس الدبس. أحضرا المطبعة من أوروبا، أما الحروف فكانت من شغل يمين مع قسم من الحروف الأميركية شُغلت في بيروت. وبعد طباعة بعض الكتب بيعت هذه المطبعة إلى رهبان دير مار قزحيا.

وفي سنة ١٨٩١ أسس إبراهيم بك الأسود المطبعة العثمانية في مركز المتصرفية في بعبدا، فكانت المطبعة الأولى في جبل لبنان التي تأسست بإدارة سنية.

عمل في هذه المطبعة نحو ٢٥ عاملًا، وكانت على قدر كبير من التقنية، وفيها من الأدوات ما جعل لها مكانة راقية بين المطابع. وقد طبعت عددًا وافرًا من الكتب العربية والتركية والفرنسية والإنكليزية واليونانية والسريانية. كما طُبعت فيها جريدة لبنان ومجلتا المنار والشمس. وفيها طُبعت جريدة الصفا مدةً، إلى أن اشترى أصحاب هذه الجريدة من آل ناصر الدين من عبيه المطبعة الخاصة بهم.

أما مطبعة الأرز فقد ظهرت في جونيه في شباط سنة ١٨٩٥ بهمّة الأخوين فريد وفيليب الخازن، وقد استحضرا آلتها من باريس، وكانت حروفها محلية ولها أيضًا حروف سريانية. وفيها طبعت جريدة الأرز وبعض الكتب.

وتجدر الإشارة السريعة إلى أن بعض حاضرات لبنان عرفت الطابع، منها مطبعة البلاغة في طرابلس التي أنشأها محمد كامل البحيري سنة ١٨٩٣ بعد أن اشترى أدواتها من إبراهيم الأسود صاحب المطبعة العثمانية، ومن جملتها آلة تصلح بأن تُدار على البخار، ثم استحضرت لهذه المطبعة أحرف مسبوكة، كما جهّزت بحروف أجنبية ونقوش، وقد أصدرت عدة كتب، وجريدة طرابلس مرة واحدة في الأسبوع.

- الطباعة في البلدان المجاورة للبنان:

عرفت البلدان المجاورة للبنان الطباعة في وقت متأخر، فأقدم المطابع التي عرفتها دمشق كان في سنة ١٨٥٥ حيث أحضرها حنا الدوماني من أوروبا واشتغل بها بضع سنين، ثم ابتاعها سليم المدور ثم حنا الحداد لتؤول أخيرًا إلى محمد أفندي الحنفي سنة ١٨٨٢.

ومن مطابع سورية أيضًا «مطبعة ولاية سورية» التي أنشئت سنة ١٨٦٤، وفيها طبعت جريدة سورية بالعربية والتركية. وجريدة الشام، ولها مطبعة يمكن أن تُدار بالبخار. والمطبعة العسكرية، والمطبعة الخيرية، ومطبعة نهج الصواب، ومطبعة روضة الشام، ومطبعة الحميدية، وغيرها من المطابع.

أما فلسطين فقد عرفت أول مطبعة سنة ١٨٤٦ في القدس على يد سبستيان فرتشنر Frotchner النمسوي الأصل الذي أسس مطبعة الآباء الفرنسيسيين. وكانت أدوات الطباعة كلها من النمسا وكذلك الحروف، إلى أن أبدلت بالحرف الإسلامبولي. وكانت لا ينقصها شيء، مما تفخر به الطباعة الأوروبية من أدوات طبع الحروف والحجر ومسابك ومقاطع وآلات تنحيس وصقل وتذهيب وتجليد وغير ذلك مما يُدار بالبخار. وقد أصدت هذه المطبعة أكثر من مئة وعشرين كتابًا في العربية والتركية والأرمنية والعبرانية واليونانية.

ومن مطابع فلسطين أيضًا المطبعة الأرمنية (١٨٤٨) ومطبعة القبر المقدس (١٨٤٩) وبعض مطابع اليهود وطائفة البروتستانت المسيحية.

خاتمة:

شكلت الطباعة مفتاح النهضة الحديثة سواء في الغرب الأوروبي، أم المشرق العربي، خصوصًا مع بداية القرن العشرين، إذ انتعشت

حركة الطباعة على نطاق واسع فصدرت الآلاف من الكتب في مختلف المجالات الأدبية والفكرية والعلمية واللغوية والدينية. وكان للمطبعة الأميركية والمطبعة اليسوعية وسائر المطابع اللبنانية، الأثر الأكبر في تنمية الثقافة على مختلف مستوياتها وتشعّباتها واختصاصاتها، كما كان لها الأثر الكبير في ظهور اليقظة العربية وامتدادها نحو وادي النيل والمهاجرين في الأميركيتين حيث «أنشأ اللبنانيون في مصر مجموعة من الصحف والمجلات ودور النشر الكبرى كالأهرام والمقتطف والمقطم والهلال والمنار وروز اليوسف وغيرها».

إن ما تقدّم يستحضر الواقع اللبناني بخلاصتين مهمتين، أو بانفجارين أحدهما إيجابي تمثّل بفيض ثقافي معرفي صدّره لبنان نحو الخارج، تمثّل بهجرة الأدمغة، فكان للبنانيين هذا الموقع المميز عالميًا، والآخر انفجار سلبي، تمثّل بما يعيشه اللبنانيون حاليًا على المستويات المختلفة ليس الاقتصادية فحسب وإنما الثقافية أيضًا، فنهضة لبنان على مرّ التاريخ بدأت بالطبع والطباعة، وأخشى أن تكون نهاية هذه النهضة بدأت بتراجع وتوقف ما بدأ به.

فإلى أين يتجه لبنان فكريًا وثقافيًا إذا ما توقفت صناعة الحرف فيه. وأي مستقبل ينتظره؟